من بلاغة آيات الحج والعمرة في القرآن الكريم



اللهم لك الحمد، جعل الكعبة البيت الحرام كعبة وقيامًا للناس، اللهم صَلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أ.د. سلامة جمعة داود[*]

يتناول هذا المقال حُسْنَ الختام بالكلمات الجامعة في الحديث عن الحج والعمرة في سورة المائدة.

قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (المائدة: ٩٧ – ٩٩).

فصل قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ﴾ عما قبله؛ لأنه جواب عن سؤال مقدر أثارته الآية السابقة، وهو: ما العلة في تحريم صيد البر على المحرم وتشريع ما ذُكِرَ من الجزاء والكفارة؟ فجاء الجواب أن هذا تعظيم للكعبة المشرفة التي جعلها الله تعالى قيامًا للناس، وفيه بيان لأنه سبحانه كما جعل الحَرَمَ والإحرام سببًا لأمن الوحش والطير، جعله سببًا لأمن الناس وسعادتهم دنيا وأخرى[1].

والفعل ﴿جَعَلَ﴾ كثر استعمال القرآن له في الحديث عن الكعبة والبيت الحرام، ومنه قوله تعالى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة: ١٢٥)

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ (البقرة: ١٢٦)

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ (إبراهيم: ٣٥)

(*) رئيس جامعة الأزهر.

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٧/ ٥٤، ونظم الدرر ٢/ ٥٤٣.

﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ (الحج: ٢٥)؛ وفي هذا دلالة على أن جَعْلَ هذا البيت المعظم قيامًا للناس ومثابة وأمنًا أمرٌ إلهي، وشأنٌ ربانيٌّ قضاه الله تعالى قضاء وأوجده إيجادًا، وشرَّفه بجلاله تشريفًا وتعظيمًا، وأودع له في قلوب الناس مهابة وبرًّا، وزاد قلوبهم إليه تعلقًا وشوقًا.

وبين تسميتها ﴿ٱلۡكَعۡبَةَ﴾ والإخبار بأن الله تعالى جعلها ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ مناسبة لطيفة؛ «لأن قيام الإنسان لا يكون إلا بثبات القدم على الكعب؛ فهو المرتكز الذي يحمل البدن، والكعبة هي المرتكز الذي به قامت حياة العرب في معاشهم ومعادهم»[٢].

و﴿ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ عطف بيان للكعبة قصد به المدح والتعظيم لا التوضيح؛ لأن شأن البيان أن يكون موضحًا للمبيَّن بأن يكون أشهر منه، والبيت الحرام ليس أشهر من الكعبة؛ ووجه دلالته على المدح والتعظيم ما فيه من لمح معنى الوصف بالحرام للمبالغة في كونه ممنوعا[٣].

ووَصْفُ ﴿ٱلۡبَيۡتَ﴾ بـ ﴿ٱلۡحَرَامَ﴾ مناسب لسياق تحريم صيد البر على المحرم؛ ولذا لم يوصف البيت هنا بـ ﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٩).

ولما كان القصد تعظيم الكعبة وبيان أنها ركن ركين به قوام حياة العرب، جمع القرآن الكريم لها اسمين متجاورين ﴿ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ زيادة في التعظيم والتشريف والثناء، ولم يجتمع لها في القرآن الكريم اسمان متجاوران في غير هذا الموضع؛ فهو من فرائد الكتاب العزيز.

وقوله تعالى: ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ من الكلمات الجامعة التي تحمل كثيرًا من المعاني؛ لأن نفع الكعبة وإصلاحها للناس عامةً وللعرب خاصةً له وجوه كثيرة في أمور معاشهم ومعادهم؛ فبها أَمِنَ أهل مكة وكان الناس يُتَخَطَّفُونَ مِن حولهم، وقصدها الحجاج والعمار والتجار، واتسعت الأرزاق بعدما كانت مكة واديًا غير ذي زرع، فصار أهلُها أهلَ الله تعالى؛ تُجْبَى إليهم ثمراتُ كل شيء، وراجت التجارة فيها حتى عُرِفَ أهل مكة بالتُّجَّار، ورحلوا رحلة الشتاء والصيف؛ ووضع الله تعالى في نفوس العرب تعظيم الكعبة المشرفة؛ فقامت حُرْمَةُ الكعبة لأهل مكة مقام الجيوش والعُدَّة والعتاد، فوَقَرَ في نفوس العرب أن «للبيت ربًّا يحميه»[٤].

وقوله: ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ صَوَّرَ الكعبة كالقائم على أمر العرب يدفع عنهم كل مضرة، ويجلب

(٢) نظم الدرر ٢/ ٥٤٣.
(٣) ينظر: الكشاف ١/ ٦٤٦، والبحر المحيط ٤/ ٣٧٢، والتحرير والتنوير ٧/ ٥٥.
(٤) ينظر: الكشاف ١/ ٦٤٦، والبحر المحيط ٤/ ٣٧٣، والتحرير والتنوير ٧/ ٥٧، ٥٨.

لهم كل مصلحة، والتعبير بالمصدر (قيام) موضع اسم الفاعل (قائمة) فيه مبالغة في قيامها بذلك؛ كما تقول: رجلٌ عدلٌ، ورجلٌ عادلٌ.

وقوله: ﴿لِّلنَّاسِ﴾ عام يشمل عموم الناس، أو المراد به العرب، ﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡكَعۡبَةَ﴾ وهي الأشهر الحرم الأربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم؛ لأنها أشهر الحج بإجماع العرب، ورجب.

وفي التعبير بالمفرد ﴿وَٱلشَّهۡرَ﴾ ووصفه بالمفرد ﴿ٱلۡحَرَامَ﴾ دلالة على أنها سواء في الحرمة، وليس بعضُها أشدَّ حُرْمةً من بعض.

قال البقاعي: «لَمَّا ذَكَرَ ما به القِوَامُ من المكان أتبعه ذلك من الزمان فقال: ﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾، وأتبعه ما به قِوَامُ الفقراء من شعائره فقال: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾، ثم أتبعه أَعَزَّه وأَخَصَّه فقال: ﴿وَٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ أي: والهدي العزيز الذي يُقَلَّدُ فَيُذْبَحُ ويُقَسَّمُ على الفقراء»[٥].

ولم يؤخر ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ بعد تمام المعطوفات، مع أن الكعبة وما عطف عليها شركاء في كونهم ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾؛ وذلك للدلالة على أن الكعبة هي الأصل في كون ما بعدها قيامًا للناس بنفعهم وإصلاحهم وانتعاشهم في أمر المعاش والمعاد، وما عطف عليها من الشهر الحرام والهدي والقلائد كان قيامُها بنفع العرب ومصالحهم بسبب الكعبة المشرفة وتبعًا لها؛ فالأشهر الحرم أشهر الحج إلى الكعبة، والهدي والقلائد تُهْدَى إليها، ولا تجد هذا المعنى إذا قيل: جعل الله الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد قيامًا للناس.

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ مرتبط بما قبله بلام التعليل؛ أي: إنَّ الله تعالى جعل الكعبة البيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد لتكون قيامًا للناس، وليعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم.

وقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (المائدة: ٩٨)

تأكيد لامتثال ما أمر الله تعالى به من تعظيم الكعبة المشرفة والشهر الحرام والهدي والقلائد وتحريم قتل صيد البر على المحرم؛ وذلك بما تضمنته من التهديد والوعيد لمن خالف، والوعد بالمغفرة لمن أطاع.

وفي تقديم الإخبار بأنه -جل جلاله- ﴿ٱللَّهَ شَدِيدُ﴾ على الإخبار بأنه تعالى ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ مع أن رحمته سبحانه سبقت غضبه مزيدٌ من التهديد والوعيد، وهذا مناسب لسياق تحريم الخمر وقتل صيد البر للمحرم.

قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ (المائدة: ٩٩)

---

(٥) نظم الدرر ٢/ ٥٤٤.

فيه مزيد تشديد وتأكيد لإيجاب القيام بما أمر الله تعالى به؛ «لأن الرسول ﷺ قد بلَّغ، وقامت عليكم الحجةُ ولزمتكم الطاعةُ؛ فلا عذر لكم في التفريط»[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ خَتْمٌ لما سبق من حكم الصيد بما يدعو إلى مراقبة الله سبحانه لعلمه -جل جلاله- بكل ما يظهره الإنسان وما يبطنه وما يعلنه وما يخفيه؛ وهذا الختام مناسب لبدء هذا الحكم بقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾

(المائدة:٩٤): فالخوف منه سبحانه بالغيب يدعو إلى مراقبته في السر والعلن.

مواقع العظة في آيات الحج والعمرة في سورة المائدة:

بالنظر في مواقع العظة في آيات الحج والعمرة في سورة المائدة نجد أن الأمر بالتقوى والتحذير من شدة عقاب الله -جل جلاله- والتخويف من يوم الحشر والنهي عن العدوان والظلم هي المعاني الغالبة على المواعظ التي تخللت أحكام الحج في السورة، وبهذا تلتقي مع المواعظ التي تخللت أحكام الحج في سورة البقرة، مع خصائص تختص بها العظة في كل آية، وإليك أهمَّ مواقع الموعظة في آيات الحج في سورة المائدة:

(٦) الكشاف ١/ ٦٤٧.

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ ... الآية (المائدة: ٢)، الموعظة في قوله في آخر الآية: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وهي أخت الموعظة بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ التي ختمت بها آية: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦)، والأمر بتقوى الله -تعالى- والتحذير من شدة عقابه مناسبان لسياق الآيتين؛ لأنهما يحضان على الامتثال التام لما جاء فيهما من أحكام وعدم التهاون فيها أو الغفلة عنها، وفي موعظة آية المائدة شيء آخر جعل لها سَمْتًا خاصًّا بها لم يأت في آية البقرة؛ بل لم يأت في القرآن كله، وهو قوله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ وهي تؤسس دستور الإصلاح والنهضة في المجتمع، مع أنها وردت في سياق النهي عن الاعتداء على المشركين الذين صدوا الرسول ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولم يرد الأمر بالتعاون على شيء في القرآن الكريم إلا على البر والتقوى، ولم يرد النهي فيه عن التعاون على شيء إلا على الإثم والعدوان، فهذا من فرائد القرآن الكريم التي اخْتُصَّ بها هذا الموضع، وقوله تعالى عقب آيات تحريم قتل الصيد على المحرم: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (المائدة: ٩٨) يلتقي مع

الموعظة في آيتي البقرة والمائدة من جهة أن التخويف من شدة عقاب الله -جل جلاله- يحض على امتثال الأحكام والعمل بها، وفيه لَمْحَةٌ خاصة به، وهو الجمع بين الترهيب من العقاب والترغيب في العفو والمغفرة وهذا مناسب جدًّا للجمع بينهما في قوله تعالى قبلها: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ (المائدة: ٩٥).

٢- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًاۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

(المائدة: ٩٦) .

الموعظة جاءت في ختام الآية، في قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، وهي نفسها التي ختم بها قوله تعالى في آية البقرة: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (البقرة: ٢٠٣) إلا في التعبير في آية البقرة بـ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ في موضع الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ في آية المائدة، وسبق الحديث عن ذلك.

ومن التناسب أن ذكر المتاع في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ فيه دلالة على أن هذا المتاع ينقضي لأنه من متاع الدنيا، ومتاعها كله زائل، فمن استحل صيد البر وتمتع به مخالفًا أمر الله تعالى فقد آثر المتاع الزائل في أيام قلائل ما تلبث أن تنقضي، فيجد نفسه في أرض المحشر، وفي هذا تخويف للمحرم من عاقبة قتل الصيد البري لأن الحشر منه جِدُّ قريب.

ومن إحكام النسق في آيات الحج في سورة المائدة أنها خُتِمَتْ بالأمر بالتقوى، وهذا مناسب لذكر التقوى والإحسان في قوله تعالى بين يدي تلك الآيات: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ٩٣)، وذِكْرُ التقوى والإحسان هنا كذكرهما في آيات الحج في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٤).

﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

(البقرة ١٩٥).

والدخول إلى الأحكام من هذا المدخل الذي يحث على التقوى والإحسان مما يهتف بأولى الألباب أن يمتثلوا وينقادوا، واتحاد النمط أو تشابهه وتقاربه في الآيات التي تدور في موضوع واحد هو من الطراز الأعلى في البلاغة الذي تتكاثر مزاياه ويَعْظُمُ سلطان الحسن فيه.

ويتجدد لقاؤنا -بإذن الله جل وعلا- في المقالات التالية مع بلاغة آيات الحج والعمرة في سورة الحج، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.